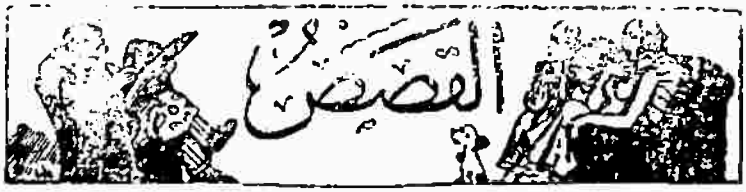

إلياس القنوع

عن ليو تولستوى

بقلم الأستاذ رمزى مزيغيت

أفاق إلياس يوما ليجد أن والده وسنده الأوحد قد ارتحل عنه إلى الدنيا الثانية، تاركا إياه وزوجه الفتية وحيدين معدمين، لا يملكان من حطام الدنيا إلا رقعة أرض صغيرة لا تكاد تأتيهما بما يسد الرمق

ولكنه تشدد وصبر على الخطب وقال له رابط الجأش . ثم انكأ على عصا نفسه وسل صارم عزيمته وامتطى جواد الشبيبة ودفع به إلى حلبة الكد والجد . وانقلب إلى أرضه الصغيرة يحرثها وينقى تربتها ويسقى غرسها ويتعهد نبتها. وقضى فى ذلك سنوات عدة لم يستبطئ خلالها النتائج أو يستكثر أن تكون . بل ثابر على العمل وواظب على مصادمة الأيام ومغالبة الحوادث ، وثبت أمام النكبات بذلها بجد جاد وعزم وقاد حتى أنقته منقادة إليه ونال من نتائجها ما يروم . فأصبحت ارقة الصغيرة سهولا شاسعة تؤتيه ثمرا شهيا وأكلا موفورا ، وانقلب البيت الصغير الحقير قصرا منيفا يغص بالخدم والحشم . وتحدث الناس وتهامسوا — انظروا ، لقد أصبح إلياس من كبار الأغنياء ، وعدت الحياة عنده جنة من جنان الله

وذاع اسم إلياس فى كافة الأنحاء وعلت منزلته بين الناس ، وتسابق كبار القوم وأشرافهم إلى كسب وده ومرضاته . فكان يرحب بهم ويحسن وفادتهم ، فينصرفون وألسنتهم تلهج بشكره وحمده

ولم تمنعه علو منزلته وعظيم نعمته عن مواصلة الجد والاجتهاد ورعاية أملاكه ومواشيه بنفسه دون أن يعتمد على من كان يعمل فى خدمته من عمال وأجراء

وكان لإلياس صبيان وصبية ، وكان ثلاثتهم يأخذون بيده ويساعدونه فى عمله يوم كان فلاحا بسيطا فقيرا . فلما اتسع رزقه زوجهم جميعا وأجرى عليهم من نعمه نصيبا كبيرا . ولكن الترف والبحبوحة أفسدا الولدين ، فارتديا رداء الرذيلة وأعطيا النفس الصامتة هواها . ولم يلبث الأكبر أن قتل فى مشادة ، واختلف الأصغر مع والده بتأثير من زوجه الخبيثة وطلب الانفصال عنه . فأعطاه الوالد بيتا وقسما من ماشيته ، فقلت بذلك ثروته . ولم تلبث النكبات بعد ذلك أن أخذت تتوالى عليه متعاقبة . فتفشى المرض بين الماشية وقضى على معظمها ، وتلا ذلك سنوات عجاف أجدبت فيها مواسم الحصاد ، ومات ما تبقى لديه من ماشية . وهكذا أخذت ثروته تذوب شيئا فشيئا بعد أن طوى عهد الشباب والقوة وأعجزه الكبر وجاء يوم وهو على أبواب السبعين من عمره ، بلا فيه كل ما يملك ، ووجد نفسه وجها لوجه أمام الفقر والعوز . وكانت ابنته قد ماتت وابنه الذى

الدهان . أما أولها فنصرف له صلته القديمة بالحضارة ورسالته القيمة فى ابن تيمية التى تعد مرجعاً فى هذا الباب ، وأما ثانيها فقد عددنا له جولات فى النشر موفقة ، وكاد اسمه يحفظه كل متصل بالحركة الأدبية . وفى الأمس القريب عرفت بكتابه « زبدة الحلب » . وما كاد أمضى أشكر لا حقاً بعد سابق فأجدنى غير موف ، وتسرع إلى ذاكرتى تلك الأحدوثة التى لقناها صغاراً عن عجوز كان يغرس نخلة ورآه الخليفة، وحين أخذ يحاوره راقته إجابته فكافأه على الأولى ثم على الثانية ، وما أن أمر وزيره بمنحه الثالثة حتى هم بالانصراف وهو يقول لوزيره سوف تفرغ خزائننا ولا تفرغ أحوبته الحلوة

ألا رفقاً بنا أيها الزميل الكريم ، فسوف نعيا بوفائك عن الخليفة بمكافأة ذلك العجوز الغارس ، فلك الله عنا يرزقك العون والصبر لنرى لك مع كل عام جديداً فى النشر

وإنا لنرجو للأستاذين الجليلين توفيقاً متصلا فى هذا العمل الجليل الذى بدآ به ، سائلين الله لهما المديد من العمر ، والمزيد من العافية؛ ترى لهما الجهود الموفقة فى هذا الميدان

ابراهيم الابيارى

انفصل عنه قدار تحمل إلى بلاد نائية ، فلم يكن هناك من يحتضنهما ويدفع عنهما غائلة الجوع ، ولم يجدا لكسب معيشتهما سبيلا إلا أن يطرقا باب الخدمة والعمل

وكان لهما جار يدعى محمد شاه ، فأخذته الشفقة عليهما وتذكر سابق نعمتهما ، فدعاهما إليه وعرض عليهما الخدمة عنده قائلا : تعاليا واسكنا في بيتي ، وإن شئتما عملا يمكنكما أن تعملا في حقل البطيخ صيفا ، وفي الشتاء ترعيان ماشيتي . وسأقدم لكما مقابل ذلك الغذاء والكساء والمأوى ، ولن أمنع عنكما أية حاجة تسألانها

وقبل إلياس وزوجه عرض جاره الطيب والتحقا بخدمته كعاملين . وشق الأمر عليهما بادئ ذي بدء ، ولكنهما تذرعا بالصبر وانصرفا إلى العمل بإخلاص قانعين راضيين . ووجد محمد شاه فيهما خير عاملين إذ كانا يعرفان ما ينتظره السيد من مخدومه من نشاط وإخلاص ، فكانا يعملان ما تسمح به قوتهما دون تذمر أو تأفف . ولكن محمد شاه كان يحزنه في الوقت نفسه أن يرى كيف ذل إلياس ، بعد عز ، وافتقر بعد بحبوحة ، واتضع بعد رفعة

وحدث يوما أن هبط على محمد شاه بعض الأقارب قادمين من بلاد بعيدة لزيارته . فرحب بهم وأحسن وفادتهم . وبعد أن أكلوا وشربوا جلسوا يتحدثون ويتسامرون . وبينما هم في حديثهم إذ مر إلياس أمام الباب في طريقه إلى غرفته . ووقعت عينا محمد شاه عليه فالتفت إلى ضيوفه وقال لهم — هل رأيتم ذلك الكهل الذي مر الآن من هنا؟ فرد عليه أحدهم بقوله — نعم ، وماذا في ذلك؟ قال لا شيء سوى أنه كان أغنى رجل في الجوار وهو يدعى إلياس ، ولا بد أنكم سمعتم باسمه . فصاح الضيف : طبعا ، ومن لم يسمع باسمه وقد طبقت شهرته الآفاق ؟ فقال محمد شاه — هذا صحيح ، ولكنه اليوم لا يملك ثاغية ولا راغية ، وها هو ذا يعيش وزوجه في بيتي عاملين أجيرين . ودهش الضيف لهذا الخبر وهز رأسه قائلا — حقا إن الدهر دولاب يدور ، فتارة يرفع هذا إلى أعلى عليين ، وتارة يخفض ذاك إلى أسفل سافلين . ولكن قل لي ألا يندب هذا الكهل سالف مجده ، ويبكي سابق عزه؟ فقال محمد شاه — وهل ذلك عند ربي ، ولكن مظهره ومنظره يؤكدان عكس ذلك ، فهو إنما يشدو بذكر خالقه ، ويترنم بفضل رازقه ، فقال الضيف — هل أستطيع أن أتحدث إليه — بودي أن أسأله سؤالا أو سؤالين ...

فنهض محمد شاه ونادى إلياس ودعا زوجه للانضمام إلى المجلس فدخل إلياس وحيا وجلس بقرب الباب وهو يتمتم بالصلاة . وتبعته الزوجة وجلست وراء الستار مع سيدتها . وبعد أن استتب بهم المقام نظر الضيف إلى إلياس متأملا ثم سأله قائلا — قل لي يا عماه ألا يبعث فيك مرآنا شعوراً بالأسى واللوعة ؟ لا شك أن هذا المجلس يعيد إلى ذهنك أيامك الخوالي ويذكرك بحالتك الراهنة ، وتبسم إلياس ثم قال — لو شئت أن أخبرك ما هي السعادة الحقة وما هي التعاسة المرة لما آمنت بصدق قولي وحسبتني كاذبا مماريا وأرى من الخير أن تسأل عن ذلك زوجتي فهي امرأة وما في قلبها يفضحه لسانها . اسألها ما شئت وستخبرك بالحقيقة غير منقوصة

والتفت الضيف إلى ناحية الستار وقال — حسنا يا أختاه ، هلا أخبرتنا عن حقيقة شعورك ؟ فردت عليه الزوجة من وراء الستار حبا وكرامة ، فاصغ جيدا إلى ما أقوله — « نحسون عاما عشتها وزوجي نبحث عن السعادة ونفتش عنها ، ولكننا لم نجدها أو نذق لها طعما إلا في هاتين السنتين بعد أن فقدنا كل ما نملك ، وزالت عنا أسباب النعمة وبتنا أجيرين فقيرين ؛ وهي والله حال لا نبغي أفضل منها ولا أحسن » .

ودهش الجميع لهذا القول ومن جملتهم محمد شاه . بل لقد بلغت منه الدهشة أنه تقدم من الستار وأزاحه ليرى وجه الزوجة ، فاذا بها منتصبة وقد طوت يدها على صدرها ، وتعلقت عيناها بعيني زوجها ، وعلت شفتيها ابتسامة رضية . وتابعت الزوجة قولها « نعم أيها السادة ، نصف قرن قضيته أنا وزوجي بحثا عن السعادة ، ولكنها تنكبت طريقنا طيلة أيام عزنا وغنانا . . فلما أن دالت دولتنا وذابت ثروتنا وشمرنا عن ساعد الجد والعمل ، إذا بها تنقاد إلينا وتعمر قلبينا ، ولسنا نرضى عنها اليوم بديلا » .

فسألها الضيف مستغربا — ولكن كيف تفسرين هذه السعادة وأنت على هذه الحال من العوز والإملاق ؟! فردت عليه قائلة — من الناس من يعتقد أن السعادة في المال والجاه ، ولقد دلت التجارب على عكس ذلك ، فعندما كنا من الأغنياء والوجهاء كانت

أثرها طرابلس الشام :

حينما قالت : إن المتنبي يعني طرابلس الشام لا الغرب في بيته :

أكارم حسد الأرض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

لم أبن رأيي على الحدس والتخمين ولكن بنيته على حقائق لا يتطرق إليها الشك ، وإليه البيان :

١ — منذ خروج المتنبي ببادية السماوة إلى اتصاله بسيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ لم يمدح غير رجالات الديار الشامية

٢ — بعد انفصاله عن سيف الدولة انحصرت جولاته بين الفسطاط غربا ، وشيراز شرقا ، ولم يعرف عنه أنه زار طرابلس الغرب أو مدح أحدا من أهلها ولو بطريق المراسلة ، بل لم يعرف عنه أنه مدح أحدا من المغاربة ، وهذا ديوانه — وكل قطعة منه جزء من حياته — شاهد بذلك

٣ — حينما مدح المتنبي عبيد الله بن خلكان الأمير الطرابلسي الشامي كان في سن صغيرة ، فلم يكن هناك مجال لشاعر ناشئ مغمور أن يتصل بغير الأقربين من أمراء بلده وسرواتهم .

جاء في الديوان : « وقال في صباه ارتجالا وقد أهدى إليه عبيد الله بن خلكان هدية فيها سمك من سكر ولوز في عسل »

ومن هذه المقطوعة قوله :

هدية ما رأيت مهديها إلا رأيت العباد في رجل
أقل ما في أقلها سمك يسبح في بركة من العسل

وجاء في الديوان « وقال أيضا يمدحه »

وأورد القصيدة السينية التي منها البيت موضوع الخلاف

ومعنى هذا كله : أن المتنبي عرف آل خلكان صبيا ، وأنه زارهم في طرابلس الشام ومدحهم ورآهم رأي عين ورصلته هداياهم ، وهذه الهدايا — كما يؤخذ من وصفها — مما يحمله الخدم ، إذ غير معقول أن هذه الإطاقات الصغيرة الرقيقة الرشيقة التي تؤكل لوقتها وتفسد بعد زمن قصير ، ترسل من طرابلس الغرب على متون السفن إلى بحر المشرق

لي وزوجي من المشكلات والتبعات ما لا نجد معها وقتا للتحدث أو التفكير في نفسينا والصلاة لخالقنا. فيوما يزورنا زائر، وعلينا أن نفني في مرضاته كي نسكت لسانه عن الطعن في كرامتنا والحط من قدرنا . ونحن دوما في خصام مع الأجراء والعمال . . هم يتبادلون في عملهم ويطلبون أحسن الطعام ، ونحن ننقص من أجرهم ونستغلهم إلى أبعد ما يمكن، وفي هذا خطيئة أية خطيئة.. هذا عدا تخوفنا الدائم من أن تفترس الذئاب ماشيتنا أو يسرق اللصوص خيلنا أو أن ترقد الأغنام على صغارها فتقتلها .. كنا في خوف دائم وقلق مستمر ، لا نسوى مشكلة حتى تبرز لنا مشكلة أخرى . وفوق هذا وذاك فقد كنت أنا وزوجي في خلاف مستحكم .. له رأيه ولي رأيي نتمسك به ولا نحيد عنه ، فنتخاصم ونتباعد ، ونتردى في مهاوي الخطيئة من حين لحين . . أما الآن فإنا نستهل يومنا بكلمة حب ووفاء ، ونقضي نهارنا في وئام وصفاء . وليس هناك ما يشغل بالنا سوى مرضاة سيدنا على أحسن وجه، فنعمل قدر طاقتنا بعزيمة وإخلاص، وهدفنا أن نعود على سيدنا بالخير والفائدة .. وإذا ما عدنا من عمل يومنا وجدنا شرابا سائغا وطعاما شهيا، وإذا ما أوينا إلى فراشنا تحدثنا قليلا وصلينا طويلا . .

خمسون عاما قضيناها نبحث عن السعادة وقد وجدناها اليوم في حالتنا الراهنة . إن راحة النفس في قلة الآثام ، وراحة القلب في قلة الاهتمام .

وضحك الضيوف وقهقهوا .. فالتفت إليهم وقال — لا تضحكوا أيها السادة ، إذ ليس هناك ما يدعو إلى الضحك ، لقد كنت أنا وزوجي أحمقين غبيين ، فبكينا ضياع ثروتنا وندبنا ذهاب عزنا . أما الآن فقد فتح الله أعيننا على الحقيقة الوضاءة ، فجبنا الزفرات وكفكفنا الدمع هذه هي حقيقة الحياة ، وقد سقناها إليكم لا عزاء لنفسينا ، وإنما عظة لكم إن كنتم تتعظون

فقال أحد الضيوف — هذا لعمري هو الصدق مجردا ، ولقد ورد مثل هذا القول الحكيم في الكتب السماوية المنزلة . فأمسك الجميع عن الضحك . وغرقوا في لجة من التفكير العميق

رمزي منصور